المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الخامس والعشرين

١ اغسطس (آب) سنة ١٩٠٠ — الموافق ٥ ربيع الثاني سنة ١٣١٨

سلطانة الصين ومشاكلها

نشرنا في المجلد العشرين من المقتطف ترجمة كتابين بعث بهما ملك الصين الى الملك جورج الثالث ملك الانكليز سنة ١٧٩٣ خاطبهُ بهما كما يخاطب السيد عبدهُ والرئيسُ مرؤسهُ كقوله " انك بعثت الينا رُسلاً يحملون خطابك الدال على خضوعك فقدموا الينا جزيتك الدالة على اخلاصك وفضضنا خطابك وقرأناهُ فوجدنا عبارتهُ تدلُّ على طاعتك لنا واحترامك لمقامنا ولذلك امرنا بقبوله " الى ان يقول " فقد ابلغناك ارادتنا وامرنا رجالك ان يعودوا حالاً الى بلادهم . ويحسن بك ايها الملك ان تبذل جهدك لتفهم مقاصدنا السلطانية وتنفي عزيمتك تبرهن لنا على حسن ولائك واجتهد دائمًا ان تكون خاضعًا لنا تحترمًا لمقامنا لكي يكون لمملكتك نصيبها من نعم السلام "

وختمنا الكلام حينئذٍ بقولنا "ان الانكليز لم يُعرضوا عن سلطان الصين لانهُ جهل قدرهم بل بعثوا اليهِ وفدًا بعد وفد ورسولاً بعد رسول ثم ازوهُ بقدرتهم بقنابل المدافع سنة ١٨٤٠ ودخلوا عاصمتهُ عنوةً واضطروهُ ان يعطيهم جزيرة هونغ كونغ ويفتح موانيهُ لتجارتهم ويخاطب ملوكهم كما يخاطب المثيل مثيلهُ. وحاربوهُ مرةً اخرى سنة ١٨٥٨ واضطروهُ ان يقبل سفراءهم في عاصمتهِ ويسمح للاوربيين ان يسافروا في بلادهِ كيفما شاؤوا . وحاول ان لا يمضي شروط الصلح فحاربوهُ مرةً ثالثةً وفتحوا عاصمتهُ واضطروهُ الى امضائها "

ولما كانت هذه الحوادث مرتبطة بمشاكل الصين الحاضرة وكان لسلطانة الصين السلطانة شي الشأن الاكبر فيها رأينا ان نشبع الكلام عليها في هذا المقام فنقول

يتولى الملك في بلاد الصين الآن دولة منشورية الاصل اسمها دولة صنج تغلبت على دولة

منع القديسة سنة ١٦٤٤ والسلطان الحالي هو التاسع منها والسلطانة شي التي لها الشان الاكبر في الحوادث الجارية هي ام سلفه لا امهُ ولكنها تبنَّتهُ . وهي عجوز في السادسة والستين من عمرها لم تكن من بيت الملك ولكنها من لامة المنشورية التي تغلَّبت على بلاد الصين وملكتها منذ مئتين وخمسين سنة كما تقدَّم . وقد اختلف الكتَّاب في اصلها على روايتين الاولى ان ابواها كان ضابطاً في شمالي الصين فاخنى عليهِ الدهر وعضَّهُ ناب الفقر حتى اضطرت ان تبيع نفسها امةً لكي يستعين ابوها

السلطانة شي سلطانة الصين

بثمنها على حاله . وتعلمت القراءة والكتابة في بيت سيدها ورأت ذات يوم منشوراً من سلطان الصين يدعو بهِ كل فتاة منشورية عمرها بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة لتعرض نفسها عليهِ لان السلطانة زوجتهُ كانت عاقراً فاراد ان يتزوَّج باخرى ليولد لهُ نسل . فعرضت نفسها عليهِ مع غيرها من البنات ونالت الحظوة في عينيهِ فاقترن بها وجعلها زوجتهُ الثانية . هذه في الرواية الاولى والرواية الثانية انها ابنة ضابط كبير من روَّساء المنشوريين تعلمت وتهذبت في صغرها

ونالت الحظوة في عيني السلطان فاقترن بها بعد ان رأى زوجتهُ الاولى عاقرًا كما تقدَّم. وكانت في السابعة عشرة من عمرها فولدت لهُ ولدًا ذكرًا جعلهُ ولي عهدهِ وعظمت منزلتها في عينيهِ لاسيما وانها عرفت كيف ترضي خمرتها زوجتهُ الاولى وتعيش معها على تمام الوئام. لكن ابى طمع الانسان بل ناموس الطبيعة القاضي على كل حي بالسعي والكسب ان يبقى الصينيون منقطعين عن سائر الممالك مستأثرين بخيرات ارضهم وثمار اعمالهم فسلط عليهم الانكليز والفرنسويين فاتوا تاكو سنة ١٨٦٠ وهدموا حصونها بمدافعهم وساروا الى بكين فهرب منها السلطان وزوجتهُ وولي عهدهِ وعمرهُ ست سنوات الى مصيفهِ حيث كان يقضي اوقات الانس بالصيد والقنص ودخلت الجنود الاوربية بكين ونهبت ما في قصر السلطان ثم احرقتهُ

قال الجنرال غوردون (ياشا) وكان من الذين شاهدوا ذلك المنظر الفظيع . ان قائد الجنود الاوربية امر بحرق قصر الصيف وفيهِ من التحف والاثاث والرياش ما يساوي اربعة ملايين من الجنيهات. والصينيون ودعاء ولكن عظماءهم يكرهوننا ولاغرابة في ذلك بعد ان فعلنا ما فعلنا بقصر سلطانهم فان جمالهُ يفوق الوصف لا يرى امرؤ النار مضطرمة فيهِ الاَّ ويدمى فؤادهُ عليهِ فان فيهِ من بديع الصناعة وبدائع العمران ما تراهُ سيفنى قصر وندزور . وقد حطَّم الفرنسويون كل شيء فيهِ ولم يبقوا ولم يذروا

وتوفي سلطان الصين سنة ١٨٦١ وعمر ولي عهدهِ سبع سنوات ولما حضرتهُ الوفاة اقام لهُ مجلسًا من الاوصياء يتولى شؤون المملكة الى ان يبلغ سن الرشد وعهد في تربيتهِ الى امهِ وخمرتها . فلما رأت امهُ ان ادارة البلاد كلها اصبحت في يد هذا المجلس لم يرقها ذلك وكانت مقاليد البلاد في يد اخي زوجها البرنس كنغ قبلما اقام زوجها مجلس الاوصياء فتواطأت معهُ على التخلُّص من هذا المجلس والقبض على اعضائهِ بحجة إغفالهم بعض الرسوم في الاحتفال بجنازة زوجها فحكم عليهم بالقتل وصارت مقاليد البلاد في يدها ويد خمرتها. وبقي البرنس كنغ يدبر شؤون السلطنة بمهارتهِ ودهائهِ ثلاث سنوات فافلحت في ايامهِ وعزي الفضل كلهُ اليهِ فلما رأت ذلك اوجست منهُ خيفةً فامرت بعزلهِ لانهُ قدر نفسهُ فوق قدرها فاعتزل طائعًا وللحال وقع الارتباك في ادارة البلاد حتى اضطرت ان ترجعهُ الى منصبهِ بعد خمسة اسابيع وردَّت اليهِ كل الخطط التي كان فيها ما عدا رئاسة الوزراء

ولما بلغ ابنها سن الرشد اختارت لهُ زوجةً من بنات الامراء فاتى ببنات المنشوكانين ومررنَ امامها رباعَ رباعَ ومع كل فتاة ورقة فيها اسمها وسنها فاذا اعجبتها واحدة منهنَّ سألتها بعض المسائل وكتبت جوابها عنها فابقاها الخصيان عندهم وصرفوا الباقيات ثم عُرض عليها

هؤلاء الفتيات المختارات ثانيةً وثالثة وهي تفربل منهنَّ الى ان قرَّ قرارها على فتاة واحدة فاختارتها زوجةً لابنها واحتفل باقترانه بها احتفالاً عظيمًا وكان ذلك سنة ١٨٧٣ لكنهُ توفي سنة ١٨٧٥ ولا يعلم من امرهِ شيءٌ كثير. وكانت زوجتهُ حاملاً ونقضي شريعة الصين ان يُنتظر ما تلدهُ فان كان ذكرًا فهو السلطان وهي التي تكفلهُ وتكون نيابة الملك لها ولا يبقى شأن لجدتهِ وضرتها وان كان انثى تبنَّت لها ابنًا فيكون السلطان وهي التي تكفلهُ وتكون لها نيابة الملك ايضاً لكن السلطانة شي داست شريعة البلاد واغضت عن كنتها قبلما تلد وتبنت ابن الامير تشن

البرنس كنغ الذي له الشان الاعظم في تاريخ الصين الحديث

اخي زوجها وعمرهُ اربع سنوات فبقيت النيابة في يدها ويد ضرتها والبرنس كنغ يدير شؤون البلاد الى سنة ١٨٨٤ وحينئذٍ عزلتاهُ ونصبتا مكانهُ الامير تشن ابا السلطان الصغير ويقال انهُ من الشعراء وبينهُ وبين السلطانة شي مطارحات شعرية لكنهُ ليس من رجال السياسة فاعتمدت السلطانة في ادارة الشؤون على الوزير لي هنغ تشنغ الداهية المشهور

ولما اشتدَّت المجاعة في ولاية شانسي نشرت في وضرتها امرًا سلطانيًا تقولان فيهِ انهما رأتا ثمن اللحم الذي يؤكل في قصرهما يبلغ مئة ريال كل يوم فعزمتا ان لا تأكلا لحمًا ما دام

شعبها جائعاً وامرنا ان نضاف المئة الريال ثمن اللحم الى اموال الاعانة التي تنفق على الجياع. فكان لهذا الامر السلطاني اعظم وقع في النفوس. ثم ان السلطانة شي اختارت لتعليم الولد الذي تبنتهُ ليكون سلطاناً رجلاً مشهوراً بالعلم والحكمة وبُعد النظر في العواقب فربّاهُ وهذّبهُ وتوفيت السلطانة الاولى سنة ١٨٨١ فاستقلت السلطانة شي بالسلطة وحدها الى سنة ١٨٨٨ حينما بلغ السلطان الجديد سن الرشد فاختارت لهُ زوجة ونشرت امراً سلطانياً قالت فيهِ

امرٌ خاص من السلطانة الارملة

لقد تأهل السلطان لميراثهِ المجيد وهو يزيد رشداً يوماً فيوماً ولذلك لاق بهِ ان يختار لهُ زوجةً فاضلة تساعدهُ على شؤون بلاطهِ وتتولى ادارة خاصتهِ وتساعدهُ ليسير سيرةً صالحةً مستقيمةً لذلك جعلنا نتهوبالا ابنة الجنرال كوي حسبما نغ التي اخترناها لهُ زوجةً لاجل فضائلها

وامرنا ايضاً ان تكون نتالا بنت تشنغ هسي وعمرها خمس عشرة سنةً زوجةً ثانيةً لهُ واختها نتالا وعمرها ثلاث عشرة سنة سريةً لهُ من الدرجة الثانية

وقد اختلف الكتّاب كثيراً في اوصاف السلطانة شي فمدحها بعضهم حتى جعلها مجمع الفضائل وذمها البعض الآخر حتى جعلها قرارة الرذائل . والظاهر ان الصينيين لا يعبأون بالكذب فاذا اصاب احدهم خيراً منها مدحها على قدر ما تحتمل اللغة الصينية من الغلو في المدح واذا اصاب آخر ضيراً منها ذمها على قدر ما تحتملهُ لغتهُ من الذم. وكذلك الاوربيون الذين ينقلون عنهم يجارونهم غير محاذرين . الاّ ان جمهورهم يقول انها تفوق نساء الصين علماً وادباً وانها تصوّر وتنظم الشعر الحسن وقد اهدت الى مدرسة هملن الكلية ستة مقاطع من نظمها. وكتب بعضهم في جريدة الوولد الاميركية سنة ١٨٨٨ يقول "انها مهيبة الطلعة تمشط شعرها وتمقصهُ بيدها بدبابيس من الذهب وهي مستقلة في رأيها" لا تتقيد بآداب السلوك الصينية . تروض جسمها بالرماية داخل اسوار قصرها وتتمرّن على الملاكمة . اخبرني السفير دنبي انها تدرس كل المواضيع التي تعرض عليها وهي كثيرة الاشتغال جداً ومن رأيهِ ان التاريخ سيذكر اسمها مثل اعظم الملكات وهي التي رفّت الصين الى درجتها الحاضرة بين ممالك الارض"

وقد وصفها واحد رآها حديثاً فقال انها طويلة القامة معتدلة القوام سوداء الشعر والعينين سمراء الوجه قدماها في الشكل الطبيعي لم تصغّرا كاقدام الصينيات لان بنات منشو لا يصغرن اقدامهنّ

ولما استقبلت نساء السفراء قبل الحوادث الاخيرة كتب سفير انكلترا يصف استقبالها لهنّ فقال انها ابدت غاية الدعة والبشاشة واللواتي مضين الى القصر وهنّ يحسبن انهنّ

يلاقين امرأة متكبرة متعظمة استغربن كثيراً ما وجدنهُ في جلالتها من اللطف والدعة ولين الجانب

ويقول خصومها انها مغرمة بالمال والمقامرة غدّارة تقتل خصومها بالسم فلم تبقِ على خصم وانها قتلت ضرتها وكنتها. لكن الناظر في احوال الصين قبل ايامها وفي ايامها لا يستطيع ان يحسبها حقها من الاهتمام بترقية بلادها اكثر من كل من سلفها

وبلغ السلطان الحالي سن الرشد سنة ١٨٨٧ وسلّم مقاليد الاحكام بالفعل سنة ١٨٨٩ فوقع الخلاف بينهُ وبينها لانهُ كان يحب الاستقلال عنها وهي قد ثبتت وشابت على ادارة الاحكام بيدها فشقّ عليها ان تربي ولداً تحسبهُ بزّابها فتجدهُ عقوقاً. والظاهر من وصف السفراء لهُ انهُ نحيف البنية كثير الشغل يميل الى الاستبداد في الرأي و يشتغل بامور ليس من شأنهِ الاشتغال بها فيتعب نفسهُ على غير طائل مثل تعرضهِ لديوان الامتحان فان المتاصب تعطى في بلاد الصين بعد امتحان دقيق فطلب مرةً اوراق الامتحان وبقي يطالعها ثلاثة ايام كاملة ثم عين درجات الممتحنين حسبما تراءى لهُ فرقّى البعض الى اعلى المناصب وخفض البعض الى ادناها على ضد ما اقرّت عليهِ لجنة الامتحان

ثم نشبت الحرب بين الصين واليابان ويقول البعض انها كانت برضى السلطانة شي وعلى غير رضاهُ ويقول غيرهم انها كانت برضاهُ وعلى غير رضاها فوقع الخلاف بينهما بسببها وقام حينئذٍ كنغ يو واي زعيم الاحرار في بلاد الصين وهو شاب من مدينة كنتون كان يعلم فيها فقرأ تاريخ بطرس الاكبر قيصر الروس واعجب بهِ وخطر لهُ انهُ يمكن النهوض ببلاد الصين في سنوات قليلة كما نهضت بلاد الروس وكتب رسالةً في هذا الموضوع اطّلع عليها سلطان الصين فاعجب بها

وقد اشار هذا الرجل على السلطان ان يأمر وزراءهُ وكل الذين في مناصب عالية في بلاد الصين بان يمضوا الى المعابد ويحلفوا هناك الايمان المغلظة انهم يساعدونهُ في ترقية البلاد وادخال كل طرق الاصلاح اليها. ومن طرق الاصلاح هذه تنقيح قوانين الادارة كلها واقامة مجلس من الرجال الذين درسوا في اوربا او تعلموا الاساليب الاوربية لكي يساعد في اصلاح المملكة وتنظيم دوائر الحكومة على اسلوب دوائر الحكومة في اوربا واستخدام الاجانب فيها مشيرين ومساعدين. وتغيير نظام جباية الاموال فتصير اموال السلطنة كلها ترد الى خزينة الحكومة بدلاً من انفاق اموال كل ولاية فيها فيصير عند الحكومة مال كافٍ لتعبئة الجنود وتقوية الاساطيل وانشاء المدارس الحربية

وقرأ ولاة الصين هذه الرسالة فاستخفوا بها وقالوا لن نغير عادات اسلافنا واما السلطان فاعجب بها وعزم على الجري بموجبها واخذ من ساعته يغير ويبدل ويعزل وينصب فعزل مرة خمسة آلاف موظف دفعة واحدة ووظائف كثيرين منهم وراثية تقلدوها ابًا عن جدّ . وامر ان ترسل اوامره الى الولاة والحكام بالتلغراف . واطلق حرية الصحافة . واباح لكل احد ان يرفع اليه ظلامته مباشرة وكانت الظلامات ترفع الى دواوين الحكومة المختلفة فتتنقل من ديوان الى ديوان ولا يصل منها شيء الى الدواوين العليا

وكان في ديوان الشعائر الدينية كاتب صغير اسمه وان هسن فلما رأى نجاح كنغ يو واي قدّم عريضة الى السلطان طلب فيها منه اصلاحات اخرى . فاغاظ الوزراء والولاة من وقاحته ووبخوه توبيخًا صارمًا اما الامبراطور فاصدر امرًا مدحه فيه على جسارته وشجاعته الادبية ورقاه الى منصب لم يكن يستطيع الارتقاء اليه الاّ بعد امتحانات كثيرة وعزل رئيسي مجلس الشعائر الدينية ونائبيهما وكثيرين من كبار الموظفين لانهم تجاسروا على تجهز حربة غيرهم من رعاياه وقاوموا رغبته في اصلاح بلاده

فلما رأى عظماء الصين ذلك من سلطانهم لجأوا الى السلطانة فامر بقتلها اما هي فجمعت حولها خواصها واكتنفت قصره بفريق من الجند المخلصين لها واضطرته ان يمضي امرًا ملكيًا في ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ يقول فيه انه تنازل عن الملك لانه وجد نفسه غير كفوء له ويتوسل اليها فيه ان تستلم زمام الاحكام بيدها . وللحال فرّ بعض المصلحين وقُبض على البعض الآخر فقُتلوا او نفوا وسُجن السلطان في قصره ولكن بقيت الاوامر تصدر باسمه فباسمه سُلمت الصين كياو شاو وبورت ارثر وواي هاي واي ونحو ذلك مما جرّ الى الويلات الحاضرة. وباسمه ايضًا صدر امر في الرابع والعشرين من شهر يناير الماضي يقول فيه انه لا يستطيع ان يخالف نسلاً وانه توصل الى السلطانة لتختار وريثًا للملك فاختارت پوتشنغ ابن البرنس توان وهو فتى في الرابعة عشرة. فنقم حزب الاصلاح عليها واخذ ينشر المنشورات ضدها وهي تصادره بكل ما وصلت اليه يدها وعينت مئة الف ريال لمن يقتل زعيم الاصلاح كنغ يو واي ورفيقه ليانغ شي شاو

وقابلها البرنس هنري لما ذهب الى بلاد الصين وهو اول اوربي رأى وجهها . ويقال انها هي التي قوّت جمعية الملاكمين وغيرها من الجمعيات الوطنية المعادية للاجانب لكي يقوى بها حزبها على حزب الاصلاح وتطرد الاجانب من بلادها

والحوادث التي تلت ذلك معلومة عند القراء واهمها حرق البكسرس لمحطة سكة الحديد الممتدة من بكين الى تين تسن وحصرهم السفارات الاجنبية في بكين . واراد الاميرال سيمور

ان يمضي الى بكين لانقاذ السفراء فصدَّ واضطرَّ ان يعود ادراجهُ . واطلقت حصون تاكو المدافع على بوارج الدول المتحدة فاصلتها هذه ناراً حامية دامت سبع ساعات فسقطت حصنين من حصونها وفقدت الحصنين الآخرين عنوةً . وقتل سفير المانيا في بكين وحرق رجالهُ دار نظارة الخارجية وقُتل مدير الجمارك وهو انكليزي . ووردت الاخبار ان السفراء كلهم قتلوا ثم كُذِّبت . وجرت معارك شديدة في تين تسن فدُمرت احياء الاجانب فيها ثم دمّر الاجانب احياء الوطنيين واحتلوها . والظاهر ان الدول الاوربية ومعها اليابان والولايات المتحدة عازمة ان تصل الى بكين وتخمد الثورة وتسلم مقاليد الاحكام لاناس يحسنون ادارتها وتعزز نفوذها

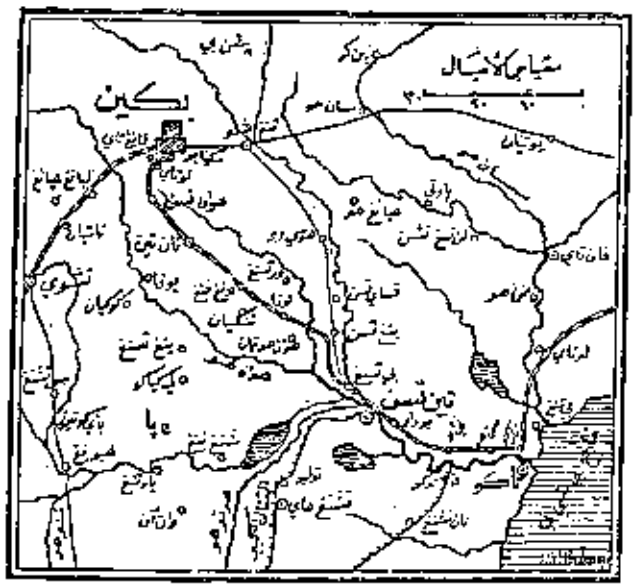

قسم من بلاد الصين حيث مواقع القتال تظهر فيهِ العاصمة بكين ومدينة تين تسن وسكة الحديد بينهما ومدينة تاكو وغيرها من المدن الكبيرة

فيها. ولا يبعد انها تختلف عند اتمام الغنيمة فتبقى الصين على ما هي عليهِ الا ان تصلح شؤونها بيدها او تتمزق وتتقاسمها الدول . ويحتمل ايضاً ان يخلو السفراء وتتوسط الولايات المتحدة بين الصين وباقي الدول وتواسي الجرح على عجم

وقد صدَّرنا هذا الجزء بصورة قارة اسيا كلها حتى تظهر بلاد الصين فيها بالنسبة الى غيرها من البلدان